مع الروائي المصري بهاء طاهر
(الحاصل على جائزة مؤتمر الرواية عام ٢٠١٥)

تأثير الأبّ والأمّ على تجربته الابداعية!

حسين عيد

أعلن في ختام الملتقى الروائي العربي السادس، الذي انعقد في القاهرة في الفترة من ١٥ الى ١٨ آذار/ مارس ٢٠١٥، فوز الروائي المصري بهاء طاهر بجائزة الملتقى. كان ذلك تتويجا لرحلة عطاء طويلة نال خلالها جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ٢٠٠٢، وجائزة البوكر العربية عن رواية "واحة الغروب" عام ٢٠٠٨، ثم جائزة النيل (كبرى جوائز الثقافة المصرية) عام ٢٠٠٩.

هذه محاولة للاقتراب من عالمه الحياتي والأدبي، للتعرّف على تأثير الأب والأم على تجربته الابداعية.

صورة أبّ

تحدث بهاء طاهر في حوار مطوّل أجريته معه في بداية عام ١٩٩٩حول جذور نشأته الأولى، ومحيطه الأسري، وتأثير الأب في طفولته، فقال: "أبي وأمي من الصعيد، من قرية الكرنك على وجه التحديد، التي تقع في حضن المعبد المشهور بجوار الأقصر في صعيد مصر. والدي كان مدرسا للغة العربية، درس في الأزهر وتخرج من دار العلوم في العشرينات. تنقل للعمل في عدّة مدن من الصعيد، لذلك تجد كلّ من أخواتي واخوتي (الثمانية) مولودا في مدينة من تلك المدن. آخر بلد عمل بها كانت الجيزة، حيث ولدت فيها في ١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٥، وكنت أصغر أخوتي، وكان فارق السن بيني وبينهم كبيرا، فكان بيني وبين أخي الأكبر – رحمه الله – خمس وعشرون سنة".

كما أورد أهم ذكرياته عن الأب، في كتاب "قريبا من بهاء طاهر: محاورات وملامح": البهاء حسين

ص ٢٧. الملجس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٤، وذلك حين قال: "كان شيخا أزهريا، وكان شيخا أزهريا أنيقا جدا: يعني لابد أن يكون لون القفطان مناسبا للون الجبّة ..الخ، كان يقضي وقتا في ذلك، وكان شخصا قويا يشبه "سي السيد".. له هيبة فظيعة في نطاق الأسرة، وربّما خارج الأسرة، لأنّه كان مدرسا، فكلّ أبناء الحي والشارع من تلاميذه. وكان شديد الاعتزاز بالذات.. يعني كان يتحمّل مسؤوليات تفوق طاقته، وهو المتعلم الوحيد وسط اخوته غير المتعلمين الذين يعيشون في القرية ويعملون بالزراعة، فكان يشعر أنه ملزم – بحكم الامتياز الذي حصل عليه وهو العمل الحكومي الميري والمرتب - أن يساعد أخوته بقدر استطاعته، ولم يكفّ عن ذلك حتى عندما أصبحت ظروفه وظروفنا المالية لا تسمح بهذا الترف"

"وكان مولعا بالقراءة بشكل لم أره في حياتي. كانت لديه مكتبة عامرة بأمهات الكتب، كان بمجرّد ما يصلي الفجر يتربع على الكرسي الأسيوطي ويسحب أحد هذه الكتب ويظلّ غارقا في القراءة، ربّما الى أن تحين صلاة الظهر"

كما أشار الى بعض الذكريات الأخرى في ذات الحوار المطوّل الذي أجريته معه في عام ١٩٩٩، وذلك حين قال: "أذكر أيضا أنّ كتب والدي كانت في خزانة كتب، مازالت موجودة حتى الآن في بيت أخي الأكبر، رحمه الله. صرف والدي قبل خروجه الى المعاش كلّ ثروته على تجليد هذه الكتب، والكتابة عليها بالخط المذهب. معظم تلك الكتب كانت تفسيرا للقرآن، لأنّ والدي كان أزهريا. كما كان فيه الكامل، ودواوين المتنبي وابن الرومي وكتب الجاحظ، وقليل من الكتب الأدبية، مثل كليلة ودمنة (الذي حفظته تقريبا)، ومصرع كيلوباترا لشوقي".

وقد أجاب بهاء طاهر عن سؤال (مباشر) حول علاقته بأبيه، فقال: "تسألني عن علاقتي بأبي.. كان أزهريا – كما قلت – وكنت أنا الأصغر، وكان التقليد في ذلك الوقت أن يوهب أحد الأبناء للأزهر، فأدخلني الكتّاب في مدينة الجيزة. حفظت جزءا لا بأس به من القرآن الكريم، ومرّت سنة، ولا أعلم لماذا عدل أبي عن أن أكمل تعليمي في الأزهر، وقدّم لي أوراقي في مدرسة الجيزة الابتدائية، فدخلت السنة الثانية مباشرة بعد امتحان نجحت فيه" (من كتاب "قريبا من بهاء طاهر" ص ٢٨)

ثم أضاف موضحا ما ورثه عن أبيه: "المهم ورثت عن أبي – رحمه الله - هذا النهم الشديد للقراءة، كنت ألاقي الجرنال تحت الباب، وقبل أن يصحو أحد في البيت أكون قد انتهيت منه، واذا لم أفرغ منه أستخبي لأكمله، ولما أسمع أبي يقول: "فين الجرنال.. فين الجرنال".. (يضحك بشدّة): "أنسحب بسرعة وأحطّه في مكانه قبل أن تنكشف الجريمة" (المصدر السابق ص ٢٩)

هنا، ربّما لا يحتاج الأمر الى قدرات خاصة لتفهّم (تأثيري) مهنة الأب المباشر وغير المباشر كمدرس لغة

عربية درس في الأزهر وتخرّج من دار العلوم. كان الأب قد وفّر لـ"بهاء طاهر" (نموذجا) مؤثرا يتطلع الى الاقتداء به، حتى أصبح محبّا للقراءة مقبلا عليها، كما أورثه مكتبة معتنى بكتبها وان كانت صغيرة الحجم أتاحت له فرصة الاطلاع على أمهات كتب التراث الأدبية والعربية مع حرص على الاعتناء بها والحفاظ عليها، وربّما ولدت لديه طموحا منذ عمر مبكر، أو رغبة لاواعية، أن يكون صاحب كتب مثلها. وتعتبر تلك جميعا (أدوات) لازمة لتنمية وتطوير وصقل (موهبة) "بهاء" وصولا الى التمكن من تدبير (أسلوب) خاص متميّز، يتّصف بحسن اختيار المفردات تحقيقا لطلاوة العبارة ووضوح مغزاها.

ظاهرة ملفتة

يمثل (ابداع) بهاء طاهر خلال فترة (اغترابه) في الشمال، (ظاهرة) ملفتة للنظر، سواء من ناحية النوع أو الكم، تستدعي التوقف أمامها وتمحيصها بحثا عن)تفسير(يبررها، فقد اعتاد غالبية الكتّاب (العرب) أنّه ما أن يغترب أحدهم بعيدا عن الوطن، (مصدر) الفن و(باعث) الالهام، فانّ أيام الجفاف الابداعي تبدأ ويظلّ الكاتب يشكو من استمرارها حتى تنتهي سنوات اغترابه ويعود ثانية الى أرض الوطن، فيتدفق نبع الابداع ثانية!

لقد سافر بهاء طاهر في عام ١٩٨١ الى مدينة "جنيف" حيث عمل بالترجمة في الأمم المتحدة، وكان قد أصدر مجموعة قصصية واحدة بعنوان "الخطوبة" عام ١٩٧٣ وأنجز رواية وحيدة بعنوان "شرق النخيل" كتبها في فترة السبعينات لكنها لم تصدر طبعتها الأولى الاّ في عام ١٩٨٥ (عن دار المستقبل العربي) خلال فترة اغترابه التي استمرّت مدّة خمسة عشر عاما أصدر خلالها مجموعتي قصص، ضمّت المجموعة الأولى (أول) قصة كتبها في مرحلة اغترابه عام ١٩٨٤، وهي قصة "بالأمس حلمت بك" وأضاف اليها بعضا من قصص ما قبل الاغتراب وحملت المجموعة عنوانها. ثم أصدر روايته الثانية "قالت ضحى" (١٩٨٥)، ثم مجموعتة الثالثة "أنا الملك جئت" (١٩٨٩) التي تكونت من عدد من القصص كتبها في غربته، ثم تدفق فيض ابداعه فأبدع روايتي "خالتي صفية والدير" (١٩٩١)، ورواية "الحب في المنفى" (١٩٩٥).

بماذا يتفسّر ابداع بهاء طاهر خاصة مع قصة "بالأمس حلمت بك" التي رجع فيها الى الابداع بعد (توقف) استمر الى ما يقرب من سنتين من بدء اغترابه؟!

علاقة أم

لنتوقف أولا قليلا أمام شكل (العلاقة) التي ربطت بين بهاء طاهر وأمّه لأهميتها الشديدة في

تشكيل عالم بهاء طاهر سواء على المستوى (الشخصي) أو على المستوى (الفني).

يقول بهاء طاهر، في (مقدمته) لرواية "خالتي صفية والدير"، التي كتبها حول حياته وعمله: "لم أعش في القرية الا في اجازات قصيرة، ومع ذلك فقد كنت أعرف عنها أدقّ التفاصيل والتطوّرات، فقد كانت قريتي هي "أمي" التي تركت القرية في السادسة عشرة من عمرها بعد زواجها من أبي وتنقلت معه أثناء عمله في عدّة مدن حتى وصلنا الى الجيزة، ولكن القرية ظلت تعيش في داخلها حتى نهاية عمرها"، و"لعل الأصح أن أقول أنها لم تغادر القرية – بوجدانها – قط فهي لم تغيّر طوال حياتها لهجتها ولا عاداتها الصعيدية. وكانت تفاصيل الحياة في القرية وتاريخ أسرها والعلاقات بين هذه الأسر وما يحدث لأفرادها الموضوع المفضّل عندها. وساعد على ذلك أنها كانت تملك موهبة غريزية في حكاية القصص (هي التي لم تتعلم القراءة والكتابة). وكانت تمارس تلك الهواية باستمرار لا سيما عندما يزورنا أقاربنا من الصعيد، فنتبادل معهم الأخبار والحكايات وتجدد معلوماتها عمّا يحدث هناك أولا بأول، ومن حسن حظها أن مثل هذه الزيارات لم تكن تنقطع على مدار السنة. وكانت أحبّ اللحظات اليّ في فترة الطفولة – وفيما بعد الطفولة أيضا – حين أستمع اليها تحكي هذه القصص باستغراق كامل وبتفاصيل دقيقة وبلغة البلدة وتعبيراتها كأنّها مازالت تعيش في النجع الذي ولدت فيه"

قرية المنشأ

هنا، (اختلاف) في شكل العلاقة بين بهاء طاهر وأمّه في ارتباطهما بقرية "الكرنك"، قرية (المنشأ) للأب والأم، فهو من ناحية لم يولد فيها بل ولد في "الجيزة" ولم يعش في القرية عن قرب "الا في اجازات قصيرة"، بينما عاشت أمه من ناحية أخرى في قرية "الكرنك" منذ مولدها، ولم تتركها الا في السادسة عشرة من عمرها بعد زواجها من أبيه وتنقلها معه أثناء عمله في عدّة مدن حتى وصلوا الى الجيزة.

ولعل (البعاد) كان عاملا (مشتركا) جمع بينهما، لكن ظلّ هناك (فارق) جوهري من ناحية درجة ذلك (الارتباط) حيث ظلت القرية "تعيش في داخلها حتى نهاية عمرها". وتأكيدا لذلك راح يعدد دلائل ذلك الارتباط: و"لعل الأصح أن أقول أنها لم تغادر القرية – بوجدانها – قط فهي لم تغيّر طوال حياتها لهجتها ولا عاداتها الصعيدية. وكانت تفاصيل الحياة في القرية وتاريخ أسرها والعلاقات بين هذه الأسر وما يحدث لأفرادها الموضوع المفضل عندها".

نبع حكايات

ولعلّ كلّ ذلك لم يكن كافيا كي يقرب المسافات ويكسر قيد (البعاد) مع الأم. عندئذ، يكون المجال

قد انفتح للحديث عن (موهبة) خاصة تتمتع بها الأمّ في (سرد) الحكايات، لكنها ليست أي حكايات بل تلك المرتبطة فقط بقريتها وناسها وكلّ ما يوجد على أرضها من مخلوقات وعناصر، وساعد على ذلك، رغم عدم تعلمها القراءة والكتابة، أنّها كانت تمتلك موهبة غريزية في سرد القصص. وانظر الى عمق تمكن تلك الموهبة منها لدرجة أنها "كانت تمارس تلك الهواية باستمرار لا سيما عندما يزورنا أقاربنا من الصعيد، فنتبادل معهم الأخبار والحكايات وتجدد معلوماتها عمّا يحدث هناك أولا بأول، ومن حسن حظها أن مثل هذه الزيارات لم تكن تنقطع على مدار السنة".

هنا، كان (ارتباط) الأم بقرية (المنشأ) ارتباطا (واقعيا) أصيلا تولّد منذ المولد والحياة بين جدرانها خلال مرحلة الطفولة والصبا حتى السادسة عشرة حين تزوجت من أبيه وبدأت رحلة (اغتراب) معه في المدن المختلفة التي كان يتنقل بينها بحكم عمله كمدرس، محافظة في ذات الوقت على علاقة (روحية) ممتدة كابنة (مخلصة) لتلك القرية، فلم تغيّر طوال حياتها لهجتها ولا عاداتها الصعيدية. كما كانت تفاصيل الحياة في القرية وتاريخ أسرها والعلاقات بين هذه الأسر وما يحدث لأفرادها الموضوع المفضّل لحكاياتها. وكانت توفر المادة الصالحة لتلك الحكايات من خلال زيارات الأقارب التي لم تكن تنقطع على مدار العام.

هنا، لابد أن نعي أن الأم قد حلت (اشكالية) البعاد، وقلصت المسافات التي تبعدها عن قرية (المنشأ) باعادة (بعثها) واحيائها ثانية من خلال (حكاياتها)، فاختزلت الحاجز لنفسها، لكنها مثلت في ذات الوقت دون أن تعي قدوة ونموذجا مرتجى لابنها الصغير، وأتاحت له في ذات الوقت أن (يعوّض) بعاده عن تلك الأرض العزيزة بالاقبال على حكاياتها، فـ"كانت أحبّ اللحظات اليّ في فترة الطفولة – وفيما بعد الطفولة أيضا – حين أستمع اليها تحكي هذه القصص باستغراق كامل وبتفاصيل دقيقة وبلغة البلدة وتعبيراتها كأنّها مازالت تعيش في النجع الذي ولدت فيه"

هكذا كانت أمه هي (نبع) الحكايات التي تربي عليها طفلا صغيرا، وهو ما أوضحه في عديد من الحوارات - منها حوار نشر بمجلة العربي" العدد ٤٩٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩ – أوضح فيه ملامح ذلك الأسلوب التربوي حيث كانت أمه: "مثل كل أم في الدنيا، تحكي لنا حكايات ونحن أطفال صغار قبل أن نعرف القراءة والكتابة". وكانت حكاءة ماهرة. لكن "حكاياتها لم تكن كحكايات الجدّات الخرافية بل كانت حكايات واقعية" ترتبط جميعها بقرية (المنشأ). أما أسلوب سردها ورغم انها لم تكن تتوجه اليه به، بل ربّما لأخته الكبرى، فقد كان بهاء وأخوته يتابعون "بانبهار وصمت!"، "ورغم أن أمي لم تكن تقرأ أو تكتب، فإن حكاياتها كانت واقعية جداً"، و"لم تكن تحكي بنوع من التعمّد". ربّما "عن حادثة حدثت في البلد لأحد أقاربها". و"كانت الحكاية تتفرّع إلى حكاية وحكايات أخرى كثيرة".

معرفة وحبّ

وانظر الى تأثير ونتيجة تلك الحكايات بالنسبة لبهاء التي عبّر عنها بقوله: "كنا نجلس حولها وبفضلها عرفت البلد وكلّ من فيها من شخصيات وما يحدث، وكان أقاربي يدهشون أثناء زياراتهم لنا عندما يأتي ذكر شخص ما فأخبرهم بما قام به من أعمال، أو أسأل عن أخبار شخص آخر فيسألونني، كيف عرفته؟"

"كانت أمي- إذن- دائرة معارف عن أهل القرية وما يدور فيها، وأعتقد أنني مدين بحبّ الحكايات لها، وإن لم يكن لي نفس موهبتها!"

هنا، كانت الأم تلعب دورين متداخلين: اولهما أنه كان يعتبرها (دائرة معارف) ربطته بأهالي قرية (المنشأ) حين كانت تسرد حكايات (واقعية) عنهم. ولم يتوقف بهاء طاهر عند هذا الحدّ (الواقعي)، بل عظّم من دورها حين اكتشف من خلالها (روح) القرية، وذلك عندما قال: "انّ قريتي هي أمي التي كانت تعيش هناك ليس تفاصيل الحياة في القرية فحسب، ولكن روح القرية – ان جاز لي التعبير- بمعنى انها كانت تعتبر عمرها الطويل خارج القرية هامشا على وجودها القصير، ولكنه الحقيقي جدا في القرية في فترة الطفولة ومطلع الشباب قبل أن تتزوج". "ان ذلك الحبّ الشديد الذي كانت والدتي – رحمها الله - تكنّه لمسقط رأسها ولملاعب صباها، انعكس عليّ أنا أيضا في صورة حبّ شديد لهذا المكان الذي كانت عندما تتكلم عنه يرقّ صوتها وتشحذ ذاكرتها، لكي تحدثنا عن التفاصيل".

وانظر الى تأثير ذلك على شخصية بهاء وتصرفاته، وهو ما يعبر عنه بقوله: "وأذكر أنني عندما كنت أذهب الى القرية كنت أتعرّف على بعض الناس من مجرّد رواية أمّي عنهم، وكانت تصيبهم الدهشة الشديدة جدا.. انّ طفلا صغيرا يقول .. ازيك يا جدّي فلان، أو ازيك يا خالتي فلانة، وهو لم يره من قبل، بل لمجرّد أنني كنت أسمع والدتي تتحدث عن هذا الجدّ أو تلك الخالة"، ليصل في النهاية الى قناعة عامة بأنه عاش حقيقة تلك القصص أو الحكايات، حين يقول: "هذه القصص التي كنت أسمعها منها كانت تعيش في وجداني كما لو كانت أشياء حقيقية، أنا عشتها لم تعشها أمي"

وانظر الى بهاء وهو يحاول أن يعرّف (القرية) من خلال تجربته الخاصة، فيقول: "القرية – في الحقيقة – هي أمي بأكثر من معنى.. بمعنى أنها صورة الأم التي انطبعت في وجداني، والتي كنت عندما أذهب الى الكرنك أبحث عنها، أبحث عن تلك الصورة التي كونتها من تلك الروايات المتناثرة، وهي أمي بمعنى أنها مقترنة اقترانا شديدا بوالدتي رحمها الله" (كتاب "قريبا من بهاء طاهر": ص ٢٦)

لنتوقف، هنا، قليلا مرّة أخرى

ان بهاء طاهر لم يعش (مباشرة) في قرية "الكرنك"، قرية (المنشأ)، بل عرفها من خلال (مصفاة) ما عايشته أمه فيها. كانت الأم قد أسقطت من اعتبارها كلّ الأماكن الأخرى التي سبق أن عاشت فيها سنوات خلال تنقلات زوجها المدرس في محافظات الجمهورية المختلفة، وأعتبرتها مجرد "هامش"، أو (منفى)، على وجودها القصير "ولكنه الحقيقي جدا" في قرية الكرنك خلال فترة الطفولة ومطلع الشباب قبل أن تتزوج، كأنّها (الأصل) والمنبت الذي أحبته حبّا شديدا، فكانت اذا ما جاء ذكره على لسانها "يرقّ صوتها وتشحذ ذاكرتها، لكي تحدثنا عن التفاصيل"، كمن تتحدث عن (معشوقها) الأكبر. لكنها لم تكن مجرّد عاشقة فقط بل (حكاءة) شفاهية موهوبة لحكايات "واقعية جداً" أيضا رغم أنها "لم تكن تقرأ أو تكتب". وهكذا (عوّضت) تلك الحكايات الواقعية عنصر (البعاد) عن القرية، وترسخت شخصيات تلك الحكايات، وعاشت في أعماق بهاء طاهر "كما لو كانت أشياء حقيقية" فولدت القرية في وجدانه من خلال منظور الأم الحكائي الواقعي، لذلك لن نندهش حين تعرّف فعلا أثناء أول زيارة له للقرية على بعض الأقارب ممن حكت أمه عنهم فقد كانت (صورهم) بملامحهم، التي سبق أن رسمتها أمه، مطبوعة في ذاكرته، تعيش في وجدانه حيّة متوهجة!

ولن نجانب الحقيقة لو قلنا انّ بهاء طاهر قد تشرّب ارتباط وحبّ أمه لأرض (المنشأ)، وورث موهبة أمه (الشفاهية) بعد أن تحوّلت في حالته الى (ابداع) مكتوب!

رحلة ابداع

هنا، لابد أن ننتبه الى تأثير (الوالدين) على بهاء طاهر. كان الأب قد وفر له (الأدوات) اللازمة لتنمية وصقل موهبته، وكانت الأم هي (الروح) التي ربطته الى موطنه الأصلي، قرية الكرنك، أرض (المنشأ) بناسها وحكايات أهلها، وكأنّه حدث تواصل (روحاني) بينهما، نقلت اليه من خلاله رؤاها وحبّها لذلك الموطن الأثير، وهو ما أجج خياله فأنطلقت موهبته الأدبية تبدع ثمارا رائعة من تزاوج تلك العلاقة. وانظر الى عمق تأثير حكايات الأم على مخيّلة بهاء طاهر الذي أوصله الى ابداع رواية "شرق النخيل" التي كتبها في أواخر سبعينات القرن العشرين مستوحيا موضوعها الذي ظلّ يشغله لسنوات طويلة منذ أن (حكت) له أمّه قصة الأب والابن اللذين قتلهما الرصاص وأحدهما يحتضن الآخر!

هكذا ظلّ طوال عمره منجذبا الى (نبع) أمّه الفني العامر دائما بأطايب الحكايات التي لا تنتهي، يسمعها ولا يرتوي أبدا، فيطلب المزيد، وهو ما أكده خلال اجابته عن سؤال عما ورثه عن والدته، اذ أجاب وهو يبتسم: "دعني أستخدم كلمة لم تكن معروفة على أيامها.. كلمة السرد دي، الى آخر

عمرها كنت أقعد تحت رجليها، وأقول لها: احك لي حاجة يا حاجة، فتضحك وتحكي" (كتاب "قريبا من بهاء طاهر" ص ٣٢)

ابتعاد اجباري

كان هناك، اذن، رابط (روحاني) قويّ لا ينفصم مع نبع أمه، يدنيه باستمرار من حرمها المقدس، ولم يكن ممكنا له والحالة كذلك أن يهجر البيت أو يستقل بحياة خاصة حتى لو أراد، الى أن أجبر مضطرا الى فعل ما لم يكن يتخيّل أبدا أن يجرؤ على فعله، وذلك حين ابتعد (مجبرا) عن الأم وترك بيت الأهل في الجيزة، واستأجر غرفة في بنسيون بوسط البلد، مفسّرا ذلك بقوله: "طبعا، كانت للمسألة أسباب، لأن اخوتي الأكبر كان من تزوّج منهم تزوّج، ومن سافر سافر، ولم يبق سوى أنا والوالدة، طبعا هي اختارت أو آثرت، وهو شيء طبيعي ومفهوم جدا، أن تبقى مع أختي الأكبر مني مباشرة لترعاها، فوجدت نفسي وحيدا في هذا البيت، فتركته الى بنسيون في وسط البلد، ظللت فيه ٣ سنين قبل أن أتزوج" (كتاب "قريبا من بهاء طاهر" ص ٤٢، ٤٣).

وهناك سبب آخر لانتقاله هو (اختفاء) ضوء الأم الهادي بحكاياتها التي تعيد بعث القرية حيّه متوهجة في خياله فأصبح (البديل) لارتحالها فراغا رهيبا، وهو ما خلف احساسا حادا بـ(الوحدة) وحزنا مقيما: "كان شيئا حزينا جدا أن تجد نفسك وحيدا في هذا البيت الذي كان يضجّ بالحياة. كان شيئا لا يحتمل، فكان عليّ أن أتركه رغم العبء المادي، لأني كنت أدفع ايجار البيت والبنسيون، وكان دخلي محدودا جدا .. دخل موظف في الاذاعة" (ص ٤٣ من نفس الكتاب)

وانظر الى تعبيره حول ابعاده عن نبع حبه ورضوخه وقبوله الابتعاد مجبرا نزولا على أرادة أمه وتقبلا لرغبتها: "طبعا هي اختارت أو آثرت، وهو شيء طبيعي ومفهوم جدا أن تبقى مع أختي الأكبر مني لترعاها"، وهو ما يعكس في ذات الوقت رغبة خفيّة بأنه لم يختر أو يؤثر الابتعاد عنها. لكنه داوم، في ذات الوقت، على زيارتها في موطنها الجديد، وظلّ الى آخر عمرها يقعد تحت رجليها ليشبع نهمه الى حكاويها، ويقول لها: "احك لي حاجة يا حاجة، فتضحك وتحكي"

والحقيقة هي ان بهاء طاهر قد (أبعد) عن فنّه مرتين متواكبتين: مرّة على المستوى الخاص حين أبعد عن أمه (الفعلية)، نبع حكاياته الذي لا ينضب، لكنه ابتعاد محدود (داخل) القاهرة، وأبعد مرّة أخرى على المستوى العام عن أمه الكبرى، (المجازية)، مصر، حين سدّت أمامه وسائل النشر والعمل في السبعينات، فأجبر على الابتعاد والارتحال ممرورا الى (الخارج)، الى (منفى) اختياري في شمال أوروبا ليعيش معاناة اغتراب لا قدرة لبشر على تحمله. ورغم كلّ ما عاناه، كان يشعر بالأمان

والاطمئنان لأنّ أمه، مركز ارتباطه بالوطن الأصل، نبعه السحري، ذاكرة حكاياته التي لا تنضب وان نأى به المكان، مازالت موجودة هناك بعيدا في أرض الوطن الأصلي، حاضرة اذا ما شاء أن يحجّ اليها في أيّة لحظة ليقعد تحت رجليها، ويقول لها: "احك لي حاجة يا حاجة، فتضحك وتحكي"

موت الأم

ثم فجأة ماتت (أمّ) بهاء طاهر في عام ١٩٨٤، بعد أن أمضى في منفاه الاختياري في الغرب ما يقرب من سنتين متوقفا خلالهما تماما عن الابداع. قد يعتبر موت الأم (باعثا) لذلك الخوف القديم الكامن في تلافيف نفسه من (الموت)، لكن ظلّت هناك حقيقة راسخة باقية هي أنّ وقع موت الأم جاء مزلزلا مدمّرا فقد كانت تمثل رابطا عميقا بأصله وناسه وبلدة المنشأ، وبموتها وقع ذلك (الانفصال)، وانقطعت تلك الصلة. وربّما كان حزنه الأشدّ يرجع الى عامل (روحاني) يمثل جانبا جوهريا من تكوينه، هو تلك الموهبة المشتركة التي جمعت بينهما، ففي حين كانت هي حكاءة شفاهية كان يمتلك موهبة ابداع مكتوب، وفي حين كانت هي نبعاً سحرياً لا تنضب حكاياته عن واقع ناسه وأهله كان هو نهما الى المزيد، لا يشبع، ولا يرتوي أبدا. حتى وسط صحراء معاناته الرافضة لوجوده في المنفى الاختياري، كان وجودها رغم البعاد يمثل بالنسبة اليه نسمة عذبة وسط هجير المنفى الضاري. أما أن يغيّبها الموت فجأة، فتختفي من الوجود الحيّ، فهو أمر لم يحسب له حسابا في يوم من الأيام. وهو ما قد يعني اختفاؤه بالمقابل من خريطة الوجود، فقد كانت هي العين المبصرة التي مثلت له عمقا حقيقيا يعيش من خلاله، فهل يمكن أن تستقيم حياة بشر دون عين؟!

وربّما ارتفع مدّ معاناته في تلك الفترة حتى أصبح على شفا الانهيار، فقد كان اختفاؤها المفاجئ بالموت يعني انفصام تلك العلاقة الرّوحية التي ربطت بينهما، فأصبح عاريا وحيدا دون سند، يتجرّع سموم انفصال لم يهيئ نفسه لاستقباله من قبل أبدا، وهو ما قد يوحي بـ(موته) بالمقابل، وكان ذلك أمرا مرفوضا!

مواجهة

اذن، كان موت الأم قد جعله (وحيدا) في الميدان دون نصير، وأطاح بكلّ الحواجز التي أحاط بها نفسه في الغربة لحماية شخصه من أيّ أذى محتمل، ووضعه مرّة أخرى في مواجهة (اجبارية) مع ذاته وما تعنيه حياته. أما المسرح الذي دارت عليه تلك المعركة الرهيبة ففي أعماقه الدفينة، فكان لابد له أن يشحذ أسلحته ويناضل بضراوة منقطعة النظير. كانت المعركة معركة حياة دانية في

مواجهة موت شرس متمرس. "أن يكون أو لا يكون".

هنا، كان لابد له أن يستنجد وسط ذلك المأزق الرهيب بحقيقة ذاته، بموهبته الابداعية، متشبثا بأن تكوينه في الأصل هو تكوين (كاتب)، وهو ما قد يفسر كلماته: "هنا بدت الكتابة لي هي البديل للانتحار أو الموت, وبمجهود إرادي بالغ القسوة, قررت أن أكسر هذه الدائرة الشريرة, بحيث لا أنسى أنني كاتب, وأنني خرجت- في الأصل- لكوني كاتباً"،

وربّما حين وصف بهاء طاهر مشاعره على موت أمه بأنه كان "حزينا حزنا لا أستطيع التعبير عنه" ("قريبا من بهاء طاهر" ص ١٢٠). كان يعني جسامة تلك المشاعر وتداخلها وتعقدها. لكن القضيّة لم تكن أبدا قضية (استيعاب) موت بل كانت بالمقابل قضية (بعث) حياة، لأنّ حزنه لم يكن أبدا معركة من أجل استيعاب قضية فقد الأم فقط وهو حقّ يجب أن نرضخ له صاغرين، بل كانت معركة رهيبة من أجل بقائه، واصراراً على النضال، بما يعني استمراره هو (نفسه) حيّا. واذا كانت الأم في حياتها قد دعمت وجوده الأدبي بشكل خاص من خلال حكاياتها التي لا تنضب، فقد حان الوقت ليردّ الدين ويثبت ذاته كابن وفيّ لتلك الأم الرؤوم، وليكن نجاحه (بعثا) واستمرارا لها في الوجود، وهو ما يمثل موقفا (مقابلا) لما أدته له في حياتها من أفضال!

اذن، كان المدّ عاتيا عاليا رهيبا متحدّيا. ولم تكن هناك لحظة تردد في (المواجهة) والصمود. كانت معركة (مصير)، ولم يكن فيها بديل عن انتصار حاسم، لأن الهزيمة تعني الاستسلام والموت والاندثار، لذلك نراه يكرر ذات المعنى بكلمات أخرى: "في وقت كتابة هذه المجموعة، كانت الكتابة بالنسبة لي بديلا للانتحار، قلت ذلك أكثر من مرّة، لأن تجربة الغربة وخروجك من بلدك رغما عنك، ووظيفتك الشاقة .. كنت أحس أن حياتي تنتهي، وربما تكون هذه الحالة هي التي استفزتني. على مدى سنتين كنت مكتئبا وأشعر باحباط لا حدّ له. كانت الحياة عبثية الى أبعد الحدود، ولم ينقذني سوى الكتابة" (من كتاب "قريبا من بهاء طاهر": ص ١١٦)، فكان لابد له أن يخوض غمار تلك المعركة مدعّما باصرار رجل (صعيديّ) لا يعرف التراجع أو اليأس. كانت معركة (داخلية) مصيرية تأكيدا لموهبته الفذة، فكان حتما عليه أن يؤوب ثانية الى معمل فنه، فالفنان يلوذ بعالم (الكتابة) كلما أعيته السبل أو أغلقت في وجهه الأبواب، حتى يجد له متنفسا يتفهّم من خلاله حقيقة ما يعانيه تمهيدا لاستيعابه وتجاوزه!

انفتاح النبع

هكذا رجع بهاء طاهر الى (الكتابة) وانفتح نبع (الابداع) مرّة أخرى، بل تدفق سيالا غزيرا بعد طول جدب. ومن هنا قد يمكننا أن نتفهم كلماته وهو يوضح (الظروف) التي أحاطت بكتابة

(أول) عمل أبدعه، وهو قصة "بالأمس حلمت بك"، وذلك حين قال – في ذات الحوار المنشور بمجلة "العربي" - "لقد كتبتها وأنا في غاية الحزن، لأنها كانت في الفترة التي أعقبت وفاة والدتي – رحمها الله - فكتبتها وأنا في حالة نفسية حزينة جدا"، بمعنى أنه كان في مرحلة صراع من أجل رأب الصدع، وتقبل فقد الأم من ناحية، والابتعاد عن الاستسلام للحزن، الذي قد يضيّع معالم القضية ويدفع الى الانتحار!

واستمر ذلك الدفق القويّ فأبدع قصة "أنا الملك جئت" مع رواية "قالت ضحى" في نفس الوقت تقريبا، وانظر اليه وهو يربط كتابتهما بظرف موت والدته أيضا: "كنت أمر بظروف صعبة للغاية، بعد وفاة والدتي. كنت حزينا حزنا خاصا لا أستطيع التعبير عنه، لذلك أظن أن روح الحزن منعكسة في هذين العملين" (قريبا من بهاء طاهر" ص ١٢٠).

لنتوقف هنا قليلا، فلم تكن المسألة أبدا مجرّد ظروف صعبة للغاية بعد وفاة الأم نتج عنها حزن لا يستطيع التعبير عنه أنعكس في ذينك العملين، بل كانت هناك معركة حامية ضارية تدور رحاها فعلا داخل ذاته في خيار محصور بين بديلين اثنين لا ثالث لهما: اما موت يتوازى مع موت الأم يلتهمه في أتونه الملتهب وهو ما يعتبر استسلاما و(انتحارا)، أو (بعثا) بديلا من (رحم) موت الأم يستنقذه بالابداع. وكان لابد للفنان أن يناضل بشراسة مستنفرا كلّ ما لديه من قوى وأن ينتصر، ليتدفق نبع ابداعه خصبا مثمرا ليس بعمل وحيد بل بثلاثة أعمال معا وان بزغت البداية مع قصة "بالأمس حلمت بك"!

أول قصة

والآن، اذا انتقلنا الى (أول) قصة كتبها بهاء طاهر في (غربته)، وهي قصة "بالأمس حلمت بك"، التي تجري أحداثها في مدينة أجنبية في شمال أوروبا، لابد أن نعي ابتداء ان بهاء طاهر لم يكن هو (الراوي) الذي يسرد القصة، بل كان شخصية أخرى (مناظرة)، أو معادلا فنيا له، حيث نجد الراوي في وضع مواز لوضع بهاء طاهر من حيث عزلته في بلاد الغربة بشمال أوروبا. لكن بهاء طاهر لم يكتف بهذا بل جعل (الغربة) هي الـ(تيمة) المسيطرة على جوّ القصة بأكمله، وذلك حين جعل صديقين للراوي هما فتحي الذي يعمل معه في نفس المؤسسة، وكمال الذي يعمل في أحد البنوك في مدينة أخرى يعانيان هما أيضا من الغربة. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ بل كانت هناك شخصية أخرى من أهالي البلد هي "آن ماري" التي تعمل في مكتب بريد، وتعيش مع أمها بعد أن مات أبوها الذي كان قسّا، تعاني هي الأخرى من نوع آخر من الغربة داخل مجتمعها (الغربي).

هكذا جعل بهاء طاهر (مركز) ثقل القصة هو قضية (الاغتراب) – قضية حياته الرئيسية - جاعلا من الشخصيات الأربع (تنويعات) مختلفة على ذات التيمة، الا ان ردود أفعالها تنوّعت طبقا لتكوين كلّ منها، ففي حين وجد الراوي ملاذه في (الفنون) الأوروبية التي راح ينهل منها نائيا بنفسه في جميع الحالات، متوحّدا، مبتعدا عن الواقع وبشره، كما وجد زميله فتحي ملاذه في (الصوفية) فراح يدعو الراوي للاقبال عليها وقدّم له كتابا عنها. أما صاحبهما الثالث كمال وعلى الرغم من أنه تزوّج منذ عشر سنوات وحصل على الجنسية فانّه مازال يشعر أنه تعيس جدا، خاصة وأنه متمسك بـ(الدين) الاسلامي ويؤرقه التساؤل حول ما اذا كان عمل البنوك عملا من أعمال الربا. وتبقى تلك الفتاة الأوروبية الشقراء، "آن ماري"، الوجه الأوروبي (المقابل) للراوي، ففي حين كان هو مسلما كانت هي مسيحية، وبينما كان هو أديبا كانت هي ترغب في أن تصبح (راهبة)، وبينما اغترب الراوي خارج وطنه نتيجة هجمة من بعض الزملاء كان من آثارها أن أبعد عن عمله وعن الكتابة، فقد اغتربت هي داخل وطنها نتيجة أنها أحبّت أحد مواطنيها وبعد أن اتفقا على الزواج سافر الى الخارج ومن هناك بعث اليها باعتذار لم تفهم أبدا مبرره خاصة لأنّ الخطوبة كانت باختياره. وفي الوقت الذي حزن فيه الراوي على غادة الكاميليا بعد أن شاهد فيلما عنها، لم يبدِ أيّ اهتمام بالبشر بعد أن كفّ عن ذلك منذ زمن. وكان يحزن "آن ماري" الى حدّ الموت: "أن تنهزم في هذا العالم الرقة والحساسية وأن ينتصر الشرّ. يحزنني أن تموت غادة الكاميليا لأنها أحبّت وضحّت، ويحزنني أيضا أن في هذه الدنيا جوعى فقراء لا يجدون طعاما ومرضى فقراء لا يجدون دواء، واذا وجدوا الدواء فانّ الموت يخطفهم دون مبرر، يحزنني الموت بصفة خاصة".

هنا، كان (محور) تحوّل الشخصيات في قصة "بالأمس حلمت بك" كتابا عن (التصوّف) مستمدا من التراث (العربي). وكما هو معروف فانّ التصوف تجربة (روحية) محلها (القلب) يعرض فيها المتصوّف عن الدنيا ويحلق (بعيدا) عن العالم المألوف منقطعا الى الله تعالى، وقد كان لبهاء طاهر رأي خاص في تجربة التصوّف أوضحه قائلا: "نظرا لأن أحد أعظم أصدقائي، وهو المرحوم أحمد حسن كان متصوفا، فأنا أكنّ لتجربة التصوّف أعظم تقدير، لأنّي رأيت بعينيّ تطبيقها العملي في انسان. كان قمة في السماحة والخلق وانكار الذات. فاذا كان هذا هو المتصوف فنعمى هو، لكني أرفض الدروشة والتواكل" ("قريبا من بهاء طاهر" ص ١٩٧)، وهو السبيل الذي اختاره زميله فتحي وصديقه كمال. لكن الراوي ظلّ رافضا أن يستبعد (عقله) خاصة بالنسبة للمقطع الذي قرأه حول حركة واتصال الأرواح حتى مرّ بتجربة مع آن ماري حين فهمت ان التواصل بينهما مستحيل، بعد أن تهيأت له فأعرض عنها، لأنه كان (معزولا) عن الآخرين مقطوع الصلة بهم. ولم يكن يملك أن يساعدها لأنه عاجز عن أن يساعد نفسه، وعندما غلقت أمامها الأبواب، استسلمت لمصيرها،

واختارت (الانتحار) حتى تتخلص من عذابها!

هنا، قد (يتقابل) موت أم بهاء طاهر في (الواقع) مع موت آن ماري في (القصة). كان موت أم بهاء طاهر طبيعيا، واقعيا، وان جاء وقعه مفاجئا مزلزلا أطاح بكلّ الحواجز التي أحاط بها الراوي نفسه في الغربة لحماية ذاته من أيّ أذى محتمل، ووضعه مرة أخرى في مواجهة مع (اشكالية) حياته في الغربة، بينما كان موت "آن ماري" في القصة مفاجئا بعد أن تيقنت من فشل حياتها، فانسحبت بهدوء، فجاء وقع انتحارها متسقا مع موقفها المتوحّد المنزوي من الحياة نفسها، لأنها لم تكن تحمل وراءها تجربة عريضة، كتجربة أم بهاء متغلغلة في أعماق تربة أرض منشأها، مرتبطة به أشدّ الارتباط. وفي حين كانت "آن ماري" تنوء بحمل تلك الحياة، بل تكاد ترفضها رفضا تاما، كانت أمه فخورة بتجرتها، تتيه اعتزازا وفخرا بها. واستمرت تلك مشاعرها حتى نهاية حياتها.

وفي حين يمثل انتحار "آن ماري" موتا (معنويا) للجزء المغترب من نفس الراوي، ونقطة تحوّل فاصلة أزالت الغشاوة عن عينيه، وكشفت له زيف موقفه، ففهم انه لم يعش تلك التجربة بوجدانه (كبشر) بل عاشها رافضا على مستوى (فكره) فقط، واكتشف على أثرها خطأه الفادح لأنّ الحياة لا ينبغي أن نعيشها بعقولنا فقط بل بقلوبنا أيضا. هنا، انفتح أمامه طريقان: اما أن يستسلم ويموت، لتنتهي تجربته (متوازيا) مع سقوط "آن ماري" وانتحارها، واما أن يصمد ويقف ويواجه، ليتوازي موقفه مع صلابة أمه واصرارها على الاستمرار وهي مرتبطة بأرضها الأولى حتى الرمق الأخير. ولم يكن أمامه كـ(فنان) كبير من مفر الا أن (يختار) الموقف الثاني، ليصمد لتستمر حياته وفق ما يهوى. عندئذ أصبح الطريق أمامه مهيئا لاتصال (روحي)، فحدث أخيرا ذلك الاتصال المستحيل حين وجد أخيرا شرط حياته ومعناها في التواصل الروحي مع الآخرين، فحان للحائر من أمر الحياة أن يرتاح، وحان للمهاجر المغترب أن يستقر بعد أن صهرته التجربة فمدّ يده كاسرا حاجز (الخوف) القديم من الموت ليتواصل المبدع (بهاء طاهر) في ذات الوقت بحلّ (فني) مع جانب آخر من (تراثه) الشرقي الصوفي، بما يعني في النهاية عودة (الروح) وعودة الانتماء اليه. وعندما وصل الى تلك الدرجة من (الايمان) "انبثقت أنوار وأنوار لم أر مثل جمالها وحفيف الجناحين من حولي، ومددت يدي. كنت أبكي دون صوت ولا دموع ولكني مددت يدي"

ألا يفسّر هذا عودة الخصب والنماء الى بهاء طاهر فتدفق نبع ابداعه سيّالا متوهجا بأعمال أدبية متوالية رائعة من داخل واقع الاغتراب؟!